بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى الأستاذ الدكتور/ محمود إسماعيل

المفكر والمؤرخ الكبير

الذي حقق التزاوج الحميم

بين الفكر الفلسفى والبحث التاريخى

أمل مبروك

المقدمة

حينما أخذ الإنسان البدائى منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطيره ومعتقداته ، بدأ "التاريخ" يظهر إلى حيز الوجود فى صورة بدائية أولية ، وبدأ الإحساس به يتكون فى ذهن الإنسان منذ أقدم العصور. وعندما سارت البشرية قدماً فى مضمار الحضارة فى شتى أساليبها وصورها أخذ "التاريخ" يشكل أساساً جوهرياً فى تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذى يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار.

ويذهب بعض المفكرين مثل "كروتشه" إلى اعتبار "التاريخ" كله تاريخاً معاصراً، ولا يستطيع الإنسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضى؛ بمعنى أن "التاريخ" يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضى من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشكلاته. وعلى هذا الأساس بحث فلاسفة التاريخ عن القوانين الأساسية التى يخضع لها "تاريخ" الإنسانية على مر العصور، واجتهدوا فى الكشف عن الأسباب والأحكام العامة التى تؤثر فى سير الأحداث التاريخية.

ومن هنا جاء اختيارنا لموضوع هذا الكتاب "فلسفة التاريخ" ، كى نتبين - من خلاله - حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها وسقوطها ، كذلك نتبين مشكلة القوانين التى تحكم سير التاريخ وتطوره . وقد قمنا بتقسيم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة أبواب على النحو الآتى :

الباب الأول عنوانه : **"ما هى فلسفة التاريخ ؟"**عرضنا فى الفصل الأول لمعنى كلمة "التاريخ" فى اللغة العربية وفى اللغات الأجنبية ، والفرق بين كلمات مثل "التاريخ" و"التأريخ" و"التوريخ" . وخصصنا الفصل الثانى للحديث عن "التاريخ" كعلم ، وكيف اختلفت حوله آراء الفلاسفة على مر العصور بين مؤيد ومعارض ، كما بيَّنا المنهج المتبع فى دراسة "التاريخ" بوصفه علماً ؛ وهذا المنهج هو المراحل التى يسير خلالها المؤرخ حتى يبلغ "الحقيقة التاريخية" . وتناولنا فى الفصل الثالث العلاقة الجدلية بين "التاريخ" و"فلسفة التاريخ" .

أما الباب الثانى فقد جعلنا عنوانه : **"الوعى التاريخى"** أفردنا الفصل الأول منه لمعرفة بداية الوعى ب "التاريخ" فى العالم القديم أى فى الحضارات الموغلة فى القدم مثل : "الحضارة المصرية" و "الحضارة الصينية" و"الحضارة الهندية" ثم "الحضارة اليونانية" . وتحتفظ - هذه الحضارات - بأرشيف متنوع الموضوعات يحتوى على عدد من الوثائق التى تعطى صورة عن الأحداث الواقعية ، وعلى بعض الوثائق التى يمكن اعتبارها بحق نموذجاً للكتابة التاريخية . ثم عرضنا فى الفصل الثانى - من هذا الباب - للمفهوم الدينى لـ"التاريخ" فى الديانة اليهودية التى تعد من أكثر الديانات التى تتماهى فيها الحدود الفاصلة بين ما هو مطلق وما هو نسبى ، بين المقدس والدنيوى . كما تحدثنا عن اللاهوت المسيحى الذى نظر إلى الأحداث التاريخية السابقة على الميلاد بوصفها فترة مظلمة لم يعرف الناس خلالها الله إلا عن طريق ظلال قاتمة لاتعكس مجده الحقيقى . فالتاريخ يبدأ بآدم ثم يبدأ بداية جديدة مع يسوع "المسيح" ، والزمن الفاصل بين هاتين البدايتين ليس إلا شكل من أشكال الجاهلية الإنسانية . أما فى دولة الإسلام ، فإن الكتابة التاريخية تطورت تطوراً هائلاً وشملت مناحى الحياة المختلفة .

والفصل الثالث والأخير يتناول "الوعى التاريخى فى العصر الحديث"، حيث يتحدث علماء "التاريخ" فى الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية فى العصر الحديث ، ويرجعون - بهذه الطفرة - إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى وضع المناهج المتميزة للمعرفة التاريخية ، وأحدث نوعاً من الثورة الكوبرنيقية أدت إلى تقديم علم "التاريخ" فى صورة جديدة .

والباب الثالث عنوانه : **"فلاسفة التاريخ"** عرضنا فى الفصل الأول للمؤسس الحقيقى لـ "فلسفة التاريخ" وهو "ڤيكو" الذى احتل مكانة متميزة فى التراث الغربى بكتابه العظيم "العلم الجديد" ، ومهمة هذا العلم أن يعرف الشعوب فى أصولها وتقدمها وإزدهارها وسقوطها ، وأن يتتبع المسار التاريخى من البربرية إلى الحضارة والمدنية . كما يعرض " ڤيكو " للقانون الذى يحكم الأمم والشعوب ، أى يعرض للمراحل الرئيسية التى تمر بها الإنسانية وهى : "المرحلة الإلهية" و "المرحلة البطولية" و "المرحلة البشرية". وتناولنا فى الفصل الثانى نظرية "كوندرسيه" فى "فلسفة التاريخ" ، حيث وضع قانوناً عاماً لسير التاريخ الإنسانى يقوم على أساس النظر إلى المجتمعات الإنسانية وتاريخ البشر ككل نظرة كلية عامة ، تُعْرَف - تلك النظرة - بظاهرة "تشخيص الإنسانية" أى تشبيه الإنسانية بشخص واحد . كما وضع "كوندرسيه" تصميماً لتاريخ الحضارة على ضوء فكرة "التقدم" ، وألف صورة تاريخية لتقدم العقل الإنسانى وركز على تأكيد الوحدة التى لا تنفصم بين التقدم الفكرى والحرية والفضيلة . أما الفصل الثالث ، فقد عرضنا فيه لـ"فلسفة التاريخ" عند "هيجل"، والطرق المختلفة التى يمكن أن نكتب بها "التاريخ" ، وقد حصرها "هيجل" فى ثلاث: "التاريخ الأصلى" و"التاريخ النظرى" و "التاريخ الفلسفى" . ثم أوضحنا السمة الأولى لفلسفة التاريخ الهيجلية وهى أنها تجعل من "التاريخ" عرضاً للروح ، فعلى المسرح

الذى تشاهد الروح عليه - ونقصد به "التاريخ الكلى" - تكشف الروح عن نفسها فى حقيقتها الأكثر عينية . فالروح منذ البداية تحمل إمكانات كثيرة تفضها فى مراحل التاريخ المختلفة مكتسبة معرفة ووعياً بما هى عليه فى ذاتها ، ومن هنا اقتضى التحقق الكامل للروح أن تنمو المجتمعات لكى تعبر تعبيراً كاملاً عن العقل وتجسده . وما دامت الروح تحقق نفسها فى الزمان ، فإن هدفها هو أن تتحقق فى "التاريخ" وأن تصل إلى فهم نفسها ومعرفة ذاتها .

وفى النهاية كل ما نتمناه هو أن تحقق هذه الصفحات الغرض الذى وضعت من أحله ، والله وحده ولى التوفيق ....

د. أمل مبروك